١

من الهَامِش إلى الصميم

أول الكلام :

قال الأصمعى : سألت أعرابية عن العشق فقالت : جل والله عن أن يرى ، وخفى عن أبصار الورى ، فهو فى الصدور كامن ككمون النار فى الحجر ، ان قدحته أورى ، وان تركته توارى .

وهذه العبارة على ايجازها وبساطتها يمكن أن تعطى بالتأمل دلالات عميقة ، لعل هذه الأعرابية المجهولة لم تقصد اليها قصدا ، ولكن ادراكها الباطن قد انطوى عليها بوعى أو بغير وعى ، فتأمل مثلا وصف العشق بالجلالة ، التى تعطى احساسًا بالضخامة ، ثم الوصف بما يناقض ذلك ، فهو لا يرى ، لكنه لا يرى لجلاله ، لا لهوانه ، ومن هنا كان تقديم القسم بالله أمام موضوع يسبق إلى الخاطر أنه على تنافر معه ، ووصفه بالخفاء مع قيامه فى الصدور ، وتقريب هذا الوصف المتناقض ظاهريا بالنار الكامنة فى الحجر ، وهو تشبيه فلسفى فى صميمه ، قال به المتكلمون والفلاسفة توضيحا لعلاقة الروح بالجسد ، وعلاقة الله بالعالم ، وتأمل الصلة بين الإنسان والحجر ، وكلاهما من طين ، وصلة العشق بالنار ، وهى نور ودمار ، وانظر كيف تتولد المادة اللطيفة المضيئة من المادة الثقيلة المعتمة ، وكيف يتم ذلك بطرف آخر ، هو حجر أو ما يشبهه ، فبارتطام الجسمين تتولد الشرارة المضيئة المحرقة ، ولو تركا دون صدام لما زادا عن حجرين !!

واذا كانت هذه الأعرابية المجهولة قد اكتفت فى تعريف العشق بالاشارة إلى غموضه والاستعانة بالتشبيه ، فان الأمر بالنسبة للباحث فى التراث العربى أشد صعوبة ، لأسباب عديدة ، فى مقدمتها أن الحب – ولنقل الآن – لمجرد تقريب المعنى .. إنه مرادف للعشق ، أو هو القدر المعتدل من العشق – عاطفة انسانية ذات طبيعة خاصة بكل فرد ، فمع التسليم بقدر مشترك تظل التجربة الذاتية فى الحب متحكمة أومؤثرة فى تصوره والحكم عليه ، واذا كان الأمر – كما يقول ابن قتيبة فى مقدمة الشعر والشعراء – أن الناس يميلون إلى سماع التشبيب لأنه « قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، والف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم ، حلال أو حرام » – اذا كان الأمر كذلك فهو ميزة ومشكلة : ميزة تحقق الرواج السريع لكل ما تبدعه

الفنون عن الحب ،والشهرة العريضة لأبطال قصصه وشعرائه وكتابه ، ومشكلة حيث تضيع معالم الموضوعية أمام طوفان التجارب الفردية ، وحيث يعتبر كل انسان نفسه صاحب خبرة فيه ينبغى اعتبارها والإفادة منها .

وتبقى صعوبات أخرى لا تقل عن هذا خطرا ، منها تداخل أخبار العشاق والمحبين ، بل الشك فى وجود بعضهم أصلا ، ومجنون ليلى مثل واضح لذلك ، وقد أورد الأصفهانى (الأغانى ج٢ ص ١ – ٩٤) كافة الاحتمالات العقلية لإثباته بالذات والاسم والصفة ، ونفيه بهذه المعانى أيضا ، وأورد لكل احتمال أدلته من الأخبار المرفوعة بسندها . ويحدث كثيرا أن يغادر الخبر دائرة المعلومات أو الحوادث الواقعية المباشرة إلى دائرة أكثر اتساعا ، فيلتقى بالحكاية ويتداخل مع القصة طلبا للاثارة والاغراب ، بل قد تتسلل اليه بعض الأساطير والخوارق لنفس الأسباب ، لم ينج من ذلك جلة العلماء الموثقين من أمثال ابن قيم الجوزية الذى جعل الحب أول خطايا البشرية وسبب معاناتها بالخروج من الجنة ، وإن دل اللفظ على أنه مردد لقول آخرين لم يعينهم : « قالوا : وقد حبب الله سبحانه وتعالى إلى رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم ، فكان آدم أبو البشر شديد المحبة لحواء ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها . قالوا : وحبه هو الذى حمله على موافقتها فى الأكل من الشجرة . قالوا : وأول حب كان فى هذا العالم حب آدم لحواء ، وصار ذلك سنة فى ولده فى المحبة بين الزوجين « فأول فتنة كانت فى هذا العالم بسبب النساء »[1] . وستكون لابن داود اشارة أخرى فى « الزهرة » سنجد أصلها فى مخطوط نادر ، وسيأتى ذلك فى مكانه من هذا الكتاب .

على أن الخطاب فى الآيات القرآنية موجه غالبا إلى آدم وحواء معا ، والوصف بالعصيان خص به آدم وحده ، ولم يقل لنا ابن القيم اذا كانت سنة الحب « بين الزوجين » قد بدأت بآدم وحواء ، متى بدأت « سنة » الحب بين من ليسا بزوجين !!

ويروى ابن القيم هذا الخبر نقلا عن الواقدى : « كانت سارة عند ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، فمكثت معه دهرا لا ترزق منه ولدا ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمتها ، فولدت لابراهيم ، فغارت من ذلك سارة ووجدت فى نفسها وعتبت على هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء ، فقال لها ابراهيم : هل لك أن تبر يمينك ؟ قالت : كيف أصنع ؟ قال : اثقبى أذنيها واخفضيها ، والخفض هو الختان ، ففعلت ذلك بها ، فوضعت هاجر فى أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا ، فقالت سارة : انما زدتها جمالا ، فلم تقاره على كونها معه ،

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ١٦٩ ، وقد عاد ابن القيم لهذه النقطة مرة أخرى (ص ١٩٠) فجعل عصيان آدم قسمة بين سببين : اتباعه الهوى فى طلب الخلود فى الجنة ، ودخوله فى هوى حواء حبا لها

ووجد بها ابراهيم وجدا شديدا فنقلها إلى مكة ، فكان يزورها كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها[1]»

وأهداف هذا الخبر واضحة فى تفسير بدء الختان عند أبناء ابراهيم ، وكذلك تبرير نقل هاجر وولدها إلى الحجاز وتركهما بواد غير ذى زرع ، ولكن هل تحتاج عوامل الأمن بين الضرتين إلى هذه المسافة الشاسعة ؟ ثم يظهر « البراق » فى آخر الخبر – الحكاية ، ليؤكد أن الحب لا يقهر ، وأنه صانع معجزات !!

وسيبقى الحب دائما قادرا على تفسير ما يعجز الواقع عن تفسيره ، واضفاء الاثارة والحيوية – والاقناع أحيانا – على حوادث تاريخية غامضة الأسباب ، أو تحتاج إلى عناصر تشويق تجعلها أكثر « درامية » وتقبلا وارتباطا بالمقدمات ، ويمكننا أن نختار بعض الحوادث التاريخية التى قيل إن الحب لعب فيها الدور الحاسم ، أو أنه الذى أنزل الستار على الفصل الأخير ، فمثلا ، فى صراع امرىء القيس مع بنى أسد حول استرداد ملك ابيه ، يرحل إلى قيصر يطلب نصرته فيعشق ابنة القيصر أوأخته ، أما النابغة الذبيانى فإنه يهوى المتجردة زوجة الملك النعمان ولى نعمته حتى يصفها – فيما يزعمون – وصفا مكشوفا فى قصيدة تتلى على زوجها ، وهو الملك المهاب ، أما الشاعر طرفة بن العبد فقد كان ينادم عمرو بن هند ، فأشرفت أخته ذات يوم فرأى طرفة ظلها فى الجام الذى فى يده ، فقال فى ذلك شعرا أحنق عليه ابن هند ، فدبر مقتله[2] . وعمارة بن الوليد يذهب إلى الحبشة سفيرا مع عمرو بن العاص ليرد النجاشى مهاجرى المسلمين إلى مكة ، فيهوى عمارة زوجة النجاشى أو تهواه ، ويشى به صاحبه فيلقى عمارة حتفه ، والحارث بن عبد المطلب – الموصوف بالجمال الفائق – يواجه نفس المصير لأنه تأبى على العشق ، اذ هويته زوجة عظيم يمنى كان الحارث فى معيته .. وهكذا إلى مالا نهاية ، يمكن أن نجد أنفسنا بين طوفان من الأخبار والحكايات والقصص ، تجمع الواقع أو الممكن إلى المستحيل ، وتكاد تنزلق بأى دراسة فى مجال الحب إلى غير ما ينبغى لها من الموضوعية والوضوح ، فتستدرج خطوة بعد خطوة بهذه المادة الغزيرة إلى تيار التسلية والإثارة ، وبخاصة أن ما يتهددها على الطرف الآخر – النقيض – هو الجدل الفلسفى حول ماهية الحب ، وسياط

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٢٩٨ ، وقد سبق لابن القيم أن أشار إلى الزيارة اليومية على البراق بين الشام والحجاز برواية سعد بن أبى وقاص : ص ١٦٩ وقد أشار « أخبار النساء » إلى هذا الخبر ، وروايته أن ابراهيم قال : اتقيى أذنيها وخصّفيها ، والخصف هو الخياطة ، وفيها أيضا أن ابراهيم كان يزورها فى كل وقت لشغفه بها وقلة صبره عنها . انظر ص ٨٣ وواضح أن مصدر الخبر واحد فى المرتين .

(٢) وقد أورد ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (جـ ١ ص ، ١٢١ ، ١٦٦ ، ١٨٨) قصص هؤلاء الشعراء ، وأشار إلى أن قصص العشق تقترن عادة بدعوى الهجاء ، فهناك الشاعر المتهم بالعشق ، والشاعر أو النديم المنافس له الذى يشيع عنه ذلك ، أو أن الشاعر نفسه يريد أن يلحق معرة بمن يرغب فى فضحه بجريمة !!

الفقهاء الموجعة فى ذم الهوى ، وهما من الأمور الجافة التى لا يميل إليها المؤلف الذى يؤثر عاطفة الحب باهتمامه ، والقارىء أيضا من باب أولى ، وسيفسر لنا هذا جانبا من مئات الأخبار والنوادر والقصص المتداولة حول المحبين والعشاق ، وهى على كثرتها تكاد ترحل بذاتها من كتاب إلى آخر ، دون تغيير يذكر أوبتغيير طفيف لا يمس الجوهر . لقد كانت سيطرة هذا المنحى القصصى على المادة المتداولة عن الحب واضحة ، بدرجة دفعت ابن حزم– وهو من أهم الباحثين فى هذا المجال – أن يغمز الشكل والمحتوى فى تلك الحكايات ، فيقول فى صدر كتابه الشهير : طول الحمامة – « والتزمت فى كتابى هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أوضح عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار » وهو على أى حال ، ايثار للمعاصرة وللوضع الراهن بصرف النظر عن أبعاده التاريخية .

ولقد صح عزم صاحب الطوق على تجنب تلك الأخبار الكثيرة المأثورة عن الأعراب ، ولكنه استعاض عنها بأخبار رواها هو عن معاصريه ، وبهذا استطاع أن يحفظ التوازن فى مادة كتابه ، ويخفف من الطابع النظرى الجدلى والتقريرى برواية الأخبار والحكايات ، ولكنها كانت أخبارا وحكايات عصرية ، ليست مأثورة عن الأعراب ، حيث اختلف سبيل الحياة ، ومن ثم سبيل التأليف .

ولكن : كيف كانت البداية ؟ :

وليس العرب فى اهتمامهم بالحب ، وكثرة أشعارهم وقصصهم حوله مبتدعين أو مختلفين عن غيرهم من الأمم ، واشادتهم بشهداء الحب وشعرائه ، ودرجة اهتمامهم بكل ألوانه من العذرية إلى الحسية الصريحة هو ما يتوافق وحضارتهم ذات الطابع العقلى والروحى والوجدانى ، والتى ازدهر جانبها المادى مائلا فى الثراء والترف واتساع العمران عدة قرون . وسيؤكد البحث فى ظاهرة الحب عند العرب أن الطبيعة البشرية لا يمكن اعتقالها ، وأن فيها قدرة على تجاوز أى اطار مسبق يفرض عليها ، ستوجد دائما قلة تحاول أن تسمو إلى المثال ، وتستعلى على نداء الغرائز ، وترفض العرف الشائع ، ولكنها ستظل قلة ، تأخذ مكانها فى الكتب ، أكثر مما تترك أثرًا فى السلوك العام الذى سيبقى دائما ابن الطبيعة ، والعرف الاجتماعى ، وثمرة حلقات متداخلة من الأعراف الحضارية التى تلعب فيها الثروة والثقافة والموروث الأخلاقى والعرفى دورا واضحا .

لقد كان العربى فى العصر الجاهلى تلقائيا فى علاقته بالمرأة ، يحترم الأعراف القبلية ، ولكنه يستجيب للصبوة ما سنحت الفرصة ، وأمن العار ، وتتحرك قصائد الشعر الغزلى وقصص الحب ومغامرات العشاق بين القطبين المتباعدين :العفة والتهتك ، ويروى ابن الجوزى قصة أخ رأى

امرأة أخيه حاسرة فعشقها وكتم عشقه حتى أوشك أن يودى به السقم ، فظل به الحارث بن كلدة ، أشهر أطباء العصر ، حتى اكتشف سبب المرض ، فما كان من الأخ إلا أن طلق زوجته ليرجع إلى أخيه فؤاده ، « فان المرأة توجد والأخ لا يوجد » فأقبل الناس يهنئون المريض بنيل مراده ، فما كان منه إلا أن حرم المرأة على نفسه . قال عبيدة السلمانى راوية الخبر : « ما أدرى أى الرجلين أكرم ؟الأول أم الآخر ! »[1] .

وفى الخبر السابق دلالة على وجود الحجاب فى العصر الجاهلى ، واكثر الإشارات تدل على أنه كان نوعا من النقاب أو الخمار ، أما الحجاب بمعنى قرار المرأة فى دارها والاحتجاب دون الرجال فلم تعرفه المرأة فى ذلك العصر . وكما عرف العصر المرأة « البرزة » أى السافرة التى تخالط الرجال ، فقد عرف اجتماع الفتيان والفتيات فى المراعى وأثناء السمر ، وكانت الافتتاحية التقليدية للقصيدة العربية تعبيرا مباشرا – فى كثير من الحالات – عن هذه الأوضاع الاجتماعية الشائعة ، واذ يقرر ابن القيم أن عادة العرب قبل الإسلام أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نسائهم ، وأن الإسلام قام على ذلك حتى نزلت آية الحجاب[2] ، يزيد الجاحظ الأمر تفصيلا فيقرر أنه مع سقوط الحجاب ما كانوا يرضون بنظرة الفلتة ، ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا فى المناسمة والمثافنة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير ، المشتق من الزيارة . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المنكر[3] .

وسياق هذا النص لا يخصصه بالجاهلية ، بل ربما ترجح أنه وصف للمجتمع الطبيعى فى العصر الإسلامى ، ومع هذا لا نجد ما يمنع من اعتبار ذلك استمرارًا لجانب من التقاليد الطيبة للمجتمع الجاهلى ، الذى يصفه ابن القيم بقوله : « وكانت الجاهلية الجهلاء فى كفرهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، وكانوا يصونون العشق عن الجماع » ، كما ذكر أن أعرابيا علق امرأة فكان يأتيها سنين وما جرى بينهما ريبة ، أما الوجه الآخر للحب ، الوجه الجنسى الصريح فنجد عليه أكثر من دليل فى أشعارهم ، بل نجد ابن القيم نفسه يحدد صورة أخرى للعشق ليست على شىء من النقاء الذى عبر عنه آنفا حتى وإن تجافت عن المباشرة .

فللحب شطر مطلق من عقاله وللبعل شطر ما يرام منيع[4]

---

(١) ذم الهوى : ص ٢٢٠ وما بعدها ، وفى القصة ملامح إسلامية ، حيث يشهد الرجل على طلاق زوجته ثلاثا .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٣٠٠ .

(٣) رسائل الجاحظ : كتاب القيان – ص ١٤٨ .

(٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٨٥ – ٨٧ .

ونجد فى أكثر من مصدر قديم ما يؤكد وجود بيوت للبغاء فى الجاهلية ، وقد كانت سمية – أم زياد ابن أبيه – من الزانيات بالطائف ، وكانت تؤدى الضريبة للحارث بن كلدة[1] ، وفى كتاب « أشعار النساء » للمرزبانى نماذج من الشعر المكشوف لأم الورد العجلانية ، وعمرة بنت الحارس التغلبية ، كما تبادلت ليلى الأخيلية الهجاء المقذع مع النابغة الجعدى ، وكذلك فعلت الدلماء مع الأخطل ، بل يورد الكتاب حوارا صريحا بين همام بن مرة وبناته الثلاث ، لا يتورعن عن اعلان شوقهن للرجال ورغبتهن فى الزواج بعبارات لا تورية فيها[2] .

وخلاصة ما نريد الانتهاء إليه أن العصر الجاهلى عرف الحب فى مستوياته جميعا ، الحسية والعذرية ، الطبيعية والشاذة ، بين الفتيان والفتيات ، وبين العشاق من أزواج وزوجات وعواهر ، وأشعار امرىء القيس وحده يمكن أن تجد فيها آثار هذه الألوان من الحب على اختلاف مستوياتها ، مما قد يعنى التلقائية والاستجابة للدافع الوقتى ، وقد يعنى اختلاف المستوى مع مراحل العمر ، وعوامل الاستقرار والسيطرة أو القلق والانفلات .

إلى أن جاء الإسلام :

وقد أنكر الإسلام الزنا ، وحرمه ، وعاقب عليه بالرجم أو الجلد ، وأباح ما سوى ذلك من الزواج بأربع زوجات متزامنات ، والتسرى بالاماء دون حد ، ولم يكن الحب أو العشق من الكلمات المحرمة أو المكروهة ، بل كانت تتداول بين الصحابة باللفظ أو المعنى ، وتظهر فى السلوك والعلاقات دون أن تنال من وقارهم أو مهابتهم ، وقد نقل ابن القيم عن الخرائطى أن عبد الله بن عمر اشترى جارية رومية ، وأنه كان يحبها حبا شديدا ، فوقعت ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها . وكانت تقول له : أنت قالون ، تعنى جيد ، ثم انها هربت منه ، فوجد عليها وجدا شديدا ، وقال :

قد كنت أحسبنى قالون فانصرفت فاليوم أعلم أنى غير قالون[3]

وليس شىء من هذا بمستغرب ، فالصحابة بشر ، وأداؤهم للفرائض وتطلعهم إلى الله لا يعنى العجز عن تذوق الجمال أو رفض المباح من متع الدنيا ، وسيرد فى شعر عمر بن أبى ربيعة أن ابن أبى عتيق – حفيد الصديق – كان يصف له حسان مكة ، ويعجب بشعره فى وصفهن ووصف مغامراته معهن . ونعود إلى التشريع الإسلامى بالنسبة للمرأة فنجده يبيح أربع نساء

---

(١) أخبار النساء ص ٢١١ .

(٢) أشعار النساء : انظر الصفحات ١١٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٣ ، وغيرها . ونجد مالا يقل صراحة وانكشافا عن ذلك فى نزهة الجلساء فى أشعار النساء للسيوطى منسوبا للشاعرة ثواب الهمذانية ومهجة القرطبية وولادة وغيرهن . هذا غير ما نجد فى المخطوطات مما لا يسمح الذوق العام بنشره .

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ١٧٢ .

غير مايبيح من الاماء ، وهذا يعنى فى النهاية أن الإسلام قد وضع اطارا مرنا وواسعا للحياة الجنسية والحياة العاطفية للرجل بصفة خاصة ، وللمرأة نسبيا ، ولكنه لم يتسامح فى الخروج على هذا الإطار بالسقوط فى الزنا . وقد دفع بعض الزناة والعشاق حياتهم فى عصر صدر الإسلام ، اعترف عدد قليل بخطيئتهم أمام الرسول – ﷺ – فأمر بحدهم بعد محاولة لاغرائهم بالتستر على أنفسهم وفتح باب التوبة أمامهم ، وقتل بعض آخر غسلا للعار وقطعا لدابر الفضائح المعلنة ، كما حدث لسحيم الشاعر – عبد بنى الحسحاس ، الذى قال عزلا فاضحا فى حرائر القبيلة ووصف مغامراته مع بعضهن ، وقد روى أن رجلا كان يختلف إلى زوجة رجل من الأنصار – فى عهد عمر أيضا – كان قد خرج فى بعث ، فعلم بذلك أخ للرجل الغائب ، فراقب مايجرى حتى شاهد الرجل فى بيت أخيه ، فاقتحم عليه البيت وقتله ، وأخبر عمر ، فأقره على قتله .كما نفى عمر نصر بن حجاج عن المدينة ، لأبيات قالتها امرأة فى خلوتها تتشوق اليه ، مع أن الرجل لم يرتكب إثما ولم يغربه ، ولكن عمر فضل الاحتياط للفتنة .

وهكذا كان الموقف من الزنا ومن مقدماته والأمور المغرية به متشددا ، ولكن هذا التشدد مالبث أن تراخى حتى استرخى .لقد بلغ التشدد أوجه فى عصر عمر ، وقد اقترن هذا التشدد بما يشغل الناس ، فمع صرامة الحكم ، كان هناك العدل ، وكان هناك العمل ، وكانت هناك الكفاية ، بل الثروة التى سيظهر مردودها السلبى فى العصر القادم .أما كيف بدأ الاسترخاء ، فأغلب الظن أنه تخفى فى ثياب التسامح ودخل من باب الشعر ، ولعل هذا الاقتباس من تفسير أبى الفداء يوضح ذلك . يقول معقبا على قوله تعالى :

(والشعراء يتّبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) :

« وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنه هو الواقع فى نفس الأمر ، فان الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما اذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدا ، هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين . وقد ذكر محمد بن اسحاق ومحمد بن الخطاب رضى الله عنه : استعمل النعمان بن عدى بن فضلة على ميسان من أرض البصرة ، وكان يقول الشعر ، فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن خليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
اذا شئت غنّتنى دهاقين قرية ... ورقاصة تحدو على كل مبسم
فان كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أى والله انه ليسوءنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، وكتب اليه عمر : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، لا إله الاّ هو اليه المصير) أما بعد فقد بلغنى قولك :

لعل امير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوءنى وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكّته بهذا الشعر ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر الاّ شيء طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلت ما قلت . فلم يذكر أنه حده على الشراب وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكن ذمه عمر رضى الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به[1] » .

من باب التسامح مع الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون احتلت الخمريات مكانا رحيبا فى تاريخ الشعر العربى ، فى كل عصوره لا نستثنى العصر الإسلامى الذى عرف العرجى والأخطل والوليد بن يزيد وبشارا وغيرهم ، فى ظل خلافة تعلن أنها قائمة بأمر الدين ، وهو دين يحرم الخمر ويحد شاربها ، ومن باب التسامح أيضا ، ومجاراة الترف ، واستكمال أسباب اللذة صار الكلام فى العشق محببا ومطلوبا ، حتى يقول بعض خلفاء بنى العباس : « حدثونا حديثا لبعض العشاق » !!

الحب ، من الشعور الفردى إلى التصور الكونى :

أما وقد دخل « الحب » إلى رحاب الكلمة عن طريق الفن الأدبى ، أو الشعر بصفة خاصة ، فقد يعنى هذا التسليم مبدئيا بأنه ظل فى حيز الاهتمام بالشعور الفردى والتجربة الذاتية[2] ، سواء كان ذلك الفرد هو شخص الشاعر ، كما هو الحال فى الشعر العربى القديم ، أو كان شخصا آخر حقيقيا أو متخيلا آثر الشاعر أن يصور مغامراته العاطفية ومعاناته ، كما فعل هوميروس – مثلا – مع أبطال الالياذة ، وهو أمر ليس له شبيه على أى حال فى تراثنا الشعرى . أما ونحن نهتم أساسا بالمأثور العربى ، وقد كانت لنا وقفة متأنية بعض الشيء مع العصر الجاهلى ، فإننا لن نجد تحليلا لعاطفة الحب ، أو رصدا لعلاماته أو تقصيا لآفاته فى ذلك العصر ، لقد تأخر هذا كله إلى ما بعد الإسلام بنحو قرنين أو أكثر ، وسنرى أن القرآن تكلم عن الحب ، والهوى ، وقدم بعض القصص لأهداف وعظية ، وأن بعض الأحاديث تكلمت عن العشق وعن العفة

---

(١) تفسير القرآن العظيم – جـ ٣ ص ٣٥٣ – ٣٥٤ .

(٢) وهذا يختلف قليلا عن القول بأن حب الآخرين هو فى نهاية الأمر نوع من حب الذات .

وعن الحب والنظر ، ولكن هذا كله قد بقى فى حدود النصوص الشرعية التى لم تستثمر فكريا كمنطلق لدراسة السلوك الإنسانى والعواطف البشرية ، فبقيت محددة بهدفها الدينى المباشر . أما حين نتوجه إلى جهود العلماء فإن ما بقى من هذه القرون الثلاثة الممتدة من الجاهلية حتى أواخر القرن الثانى الهجرى لا يتجاوز بعض التعريفات والتعليقات السريعة التى لا تخلو من غموض ، وهى تعريفات نابعة من الخبرة الشخصية لا من الرصد الموضوعى ؛ مثل ما يروى من أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن العشق ما هو ؟ فقال : هو سوانح تسنح للمرء ، فيهتم بها قلبه ، وتؤثرها نفسه . فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى ! إنما عليك أن تجيب فى مسألة طلاق أو فى محرم صاد ظبيا أو قتل نملة ، فأما هذه فمسائلنا نحن . فقال له المأمون : قل يا ثمامة ، ما العشق ؟ فقال : العشق جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب ملك مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها ، تصرفها ، توارى عن الأبصار مدخله ، وعمى فى القلوب مسلكه . فقال له المأمون : أحسنت والله يا ثمامة ، وأمر له بألف دينار[1] !!

ونحن لا نستطيع أن نشارك المأمون اعجابه بهذا التعريف الخطابى ، فيكفى أنه حين وصل إلى النقطة الحاسمة : أسبابه وأطواره ، لم يجد أمامه غير الهرب المعلن فى اختيار الفعلين : « توارى » و « عمى » !! ومع هذا فإننا لا نتعسف فنطلب من العصر غير طباعه أو استطاعته ، ويكفى أنه حتى تلك الفترة كانت أشعار المحبين وأخبارهم وقصصهم قد شاعت واستقرت طرق روايتها وأخضعت لبعض النقد والاستصفاء ، وأنها – فى تنوع مستويات المحبين ودرجات عشقهم وألوان سلوكهم وبيئاتهم – تعتبر ، وفى نطاق العاطفة الفردية والشعور الذاتى ، قد قدمت حصرا شاملا لكل أنواع الحب تقريبا : العف والجنسى والشاذ ، مع ما فى كل واحد من هذه الأنواع من تفاوت فى الدرجة وفى الأسباب والنتائج وشتى الملابسات ، حتى ليمكن أن نقول أن قراءة متفحصة لهذه الأشعار وتلك الأخبار والقصص باستطاعتها أن تغطى كافة جوانب السلوك الإنسانى تجاه عاطفة الحب ، وفى العصر الإسلامى وحده حين نضع امرأ القيس وسحيما إلى جانب عمر بن أبى ربيعة والعرجى والوليد بن يزيد ، ثم جماعة العذريين ابتداء بعروة وعفراء ، واستمرارا مع قيس وليلى ، وقيس ولبنى ، وجميل وبثينة ، إلى آخر القائمة ، وإذا اقتحمنا دور القيان فى بغداد وحاناتها ، والديارات فى العراق والشام ، ورأينا الغلاميات وأشباه الرجال ولا رجال ، فقد تم لنا الاطلاع على لوحة عريضة للحب والعشق فى كافة المستويات التى يطيقها الطبع البشرى السوى ، وغير السوى أيضا ، بدرجة تسمح بالقول بأن هذه التجارب

---

(١) مصارع العشاق جـ ١ ص ١١ ، ١٢ .

الفردية المتقاطرة كزخات المطر قد صنعت فى النهاية مجرى واضحا يمكن أن نقول إنه يعبر – بقدر من الموضوعية – عن الحب فى التراث الأدبى العربى ، وفى المجتمع العربى أيضًا ، فى مجالات الشعر والقصة والقول المأثور والنادرة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى .

ومثل كل الظاهرات ، فإن الاهتمام بالحب يتدرج من البساطة إلى التعقد أو التركيب ، ومع تنوع مناهل الثقافة العربية بعد حركة الفتح ثم حركة الترجمة لابد أن تختلف طريقة تعريف الحب ، ويتفتت الإجمال إلى تفصيل وتمييز لألوان من الحب ،يعين على ذلك تعقد النظام الاجتماعى وظهور طبقات وأجناس ومذاهب وأنشطة ما كان للمجتمع المحصور فى الجزيرة العربية بها من عهد ، ولكن التفتيت الذى انتهى إلى التفصيل لم يكن يعنى التجزؤ أو العجز عن النظر الشامل والربط بين الظواهر وارجاع الكثرة إلى الوحدة . ولا نستطيع أن نقول إننا أمام تيارين متعاكسين يتجه أحدهما إلى تجزيء الظاهرة والآخر إلى تجميعها ، وإنما – وعلى التحقيق – كان أحدهما يتعمق فيها تفصيلا ، والآخر يتعمق فيها ربطا وتوحيدا . وبعبارة أكثر تحديدا : لم يعد الحب يروى على شكل خبر أو حكاية ، أو مجرد تعريف فى شكل سؤال وجواب ، وإنما أصبح التساؤل يدور حول ماهيته ومقدماته ومراحله أو درجاته وآفاته ووسائل الوقاية منه أو الفوز فيه ، وقد واكب ذلك – على المستوى الفنى – امتداد الخبر أو الحكاية ، وتفرعها ، وتجمعها فى « غاية » أو « عظة » حتى تقترب من شكل القصة الفنية . هذا على مستوى التفصيل ، أما مستوى التوحيد ، أو تعميم الظاهرة ، فإنه على الرغم من أن الحب ظاهرة إنسانية ، وعاطفة يمتزج فيها الشعور بالعقل والإرادة ، وهذه خصائص بشرية صرف ، فإن الملاحظة الإنسانية ، والخيال ، والتأمل ، راحت جميعها تربط وتقيس وتعمم ، لتقول فى النهاية إن الحب ظاهرة كونية ، تتجاوز الإنسان إلى النبات والحيوان والأحجار ، بل تتجاوز الحياة البشرية إلى الكون الواسع حتى نلحظها فيما بين الجن ، وبين الجن والإنس وبين الكواكب ، وبين السماء والأرض !! فالكون كله يتكون ويتحرك بالمحبة .

ولعله من الطبيعى ، كما قد يغلب على الظن أن الأمر قد بدأ باطلاق ملاحظة إنسانية ذات دلالة رمزية ، فقد روى جعفر السراج خبر شجرتين قد التفتا على قبرين متلاصقين ؛ قد خرج من كلا القبرين ساق شجرة ، حتى إذا صارا على قامة التفا ، أما القبران فهما قبر عروة وعفراء ، وحين يسوق السراج هذا الخبر يتبعه بقول الناس تعليقا على هذا المشهد الغريب : تآلفا فى الحياة وفى الممات ، وحين يعود إلى رواية الخبر مرة أخرى يختلف تعليق الختام بما هو أكثر غرابة ، إذ يسأل راوى الخبر محدثه : أى ضرب هو من الشجر ؟ فيقول المحدث : لا أدرى ، ولقد سألت أهل القرية عنه ، فقالوا : لا نعرف هذا الشجر ببلادنا[1] !! وهذا أمر منطقى ،

---

(١) مصارع العشاق جـ ١ ، انظر صفحتى : ٢١٢ و ٢٦٤ .

فهذا الشجر الغريب غير المعهود ، هو الذى يناسب هذا الخبر العجيب . ولكن : هل نبتت هذه الشجرة من قلب العاشق ؟ هل تحول العاشق نفسه إلى شجرة ؟ هل تجاوب الشجر مع أشواق البشر ؟ هذه كلها ايحاءات ممكنة لصورة شجرتين ملتفتين قد خرجتا من قبرى عاشقين ، وقد يكون مثل هذا الخبر مقدمة مقبولة تفسر قول المجنون عن ليلى ، أو أبى صخر الهذلى عن حبيبته :

تكـــاد يدى تندى إذا مالمستهـــا وينبت فى أطرافها الورق الخضر

وإذا كانت فكرة أن العشق لا يقع إلاّبين متجانسين تتردد برسوخ فى الكتابات العربية حول عاطفة الحب ، فإن هذا المبدأ ذاته أسبح يغرى بتلمس التجانس فى عناصر الطبيعة المختلفة ، فإذا أمكن أن يظهر العشق على شجرة تمثل عروة ،وأخرى تمثل عفراء ، فلماذا لا تتصور علاقة من هذا النوع بين الشجر لذاته[1] ، وعلى الرغم من أن ابن الجوزى يصف ميل الجنس إلى الجنس فيما لا يعقل بأنه مجرد ادعاء ، فإنه يروى خبر نخلة عاشقة من نخيل البصرة كانت غاية فى حسنها وطيب رطبها ، ثم فسدت حتى شيصت ، قال راوى الخبر : فدعا صاحبها شيخا قديما يعرف النخل ، فنظر إليها وإلى ما حولها من النخل ، فقال : هذه عاشقة لهذا الفحل الذى بالقرب منها ، فلقحت منه فعادت إلى أحسن ما كانت[2] . !! والطريف فى هذا الخبر أنه يستدعى لاكتشاف وجه المشكلة شيخا قديما يعرف النخل ، ولا يقول عجوزا ، مع أنه البديل للمرأة العجوز التى ترشحها القصص عادة لعقد الصلات بين المحبين والتغلب على الصعاب التى تعترضهم ، ولكن الوصف بالقدم هنا يعطى ايحاءات بأن عشق الشجر أمر كان معروفا فى زمان ما من أطوار التاريخ أو عصوره ، والطريف أيضا أن هذه الصلة بين هذين العاشقين من الشجر تتم بفعل بشرى !! وسنقرأ من أقوالهم عن العشق أن النكاح يقضى على العشق ، وقد فعل ، وإن جاء بالثمرة الطيبة .

وتتعدد مظاهر وأشكال الحب ومحاولات الإنسان أن يكتشفه أو يخلعه على أشياء الطبيعة ، وما وراء الطبيعة أيضا ، حتى يتحول النظر إلى الوجه الجميل إلى ضرب من ضروب عبادة الجمال ، الساعى إلى تأمل الصنعة تعظيما للصانع المطلق الجمال ، ويرى فيه المعنى الكامل للحب إذ هو « المحبوب لذاته » ولا محبوب سواه فى النهاية . وإذا كان المحبوب لذاته قد خلق العالم وجعله مرآة ذاته فقد مضى داود الانطاكى من المقدمة إلى النتيجة ، وهى أن كل ما فى

---

(١) من الجائز أن يكون هنا تأثير دينى جاء مما أثر عن النبى عليه السلام من اخبار ، كحنين الجذع إليه ، وتسبيح الحصى فى كفه ، ونحن لا نناقش هنا مدى صحة هذه الأخبار ، إذ لا يتوقف تأثيرها فى الوجدان الشعبى على صحتها .

(٢) ذم الهوى ص٢٩٩ .

الكون إنما يتكون ويتحرك بالمحبة ، وأن العشق هو الصلة الطبيعيةالوحيدة التى تصنع حالة التوازن والتجاذب بين الأفلاك ، فما بين الأجرام والبروج والكواكب والأجسام والدوائر ... قد توافقت على غرار علاقة أعضاء الجسم الإنسانى « وهل ذلك إلاّ قوة عاشقية ، فليعتبر أولو الأبصار »[1]

وإذ يتخذ النظر إلى الوجه البشرى الجميل مجازا إلى تأمل وجه ذى الجلال والإكرام ، المحبوب لجماله وجلاله – كما تعبّر رابعة العدوية – وحيث تتجاذب أجزاء الكون بالمحبة ، فتتناغم وتتكامل كأعضاء الجسد البشرى المتآلف المحكم ، فهنا تقترب فكرة الاتحاد ، الذى يتلاشى به المحب فى المحبوب ، حتى يكون الرائى هو المرئى عينه ، وقد اعتبر الصوفية ذلك أعلى مراتبهم وأبعد غاياتهم ، وفى ذلك تمثل الوزير لسان الدين بن الخطيب بما أنشدوا :

تمنى المحب يرى علوة وقد شاع فى حبه وصفها
أعـــارته طرفا يراهـــا به فكان البصير لهـــا طرفها

وكما يقول فى تعليقه على هذين البيتين : « ويظهر ذلك عند حب الله اياه ، وأنه سمعه وبصره ويده ، فإذن : ليس ثم إلاّ الله وأن الخلق له ، ثم به ، ثم لا شىء إلاّ الله فى الوجود »[2] .

هكذا تتنامى وتتفرع فكرة الحب من التجربة الفردية المباشرة ، النابعة من خبرة عملية وشعور شخصى تجاه المرأة ، إلى أن تصير سر أسرار الوجود ، وعلامة الاصطفاء الربانى . ومن جانبنا فإننا لا نستطيع أن نغفل هذه الامتدادات السخية بالفكر الفلسفى والتجارب الروحية ، ولكننا سنظل ننظر إلى الحب فى حدود التجربة العاطفية بين الرجل والمرأة ، ونعتبره بهذه الصفة المجرى الرئيسى لهذه الدراسة ، دون أن نهمل هذه الروافد الزاخرة .

الحب فى القرآن والسنة :

ظلت كلمة « الحب » أكثر الألفاظ دورانا فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، من أى كلمة أخرى تعبر عن معناها أو جانب من هذا المعنى ، فلم ترد كلمة « العشق » فى القرآن مطلقا ، وجاءت مرة واحدة فى الحديث : « من عشق فعف وكتم ثم مات فهو شهيد »[3] ، ويقرر ابن القيم أن لفظ العشق لم يرد فى غير هذا الحديث ، ويرويه عن سويد بن سعيد : « من عشـق وكتم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » ، وينكره ويصفه بالبطلان وبأنه

(١) تزيين الأسواق ص ٣٩٥ .
(٢) روضة التعريف بالحب الشريف – ص ٢٠٢ .
(٣) قد روى هذا الحديث باختلاف طفيف فى التركيب ، وبقى المعنى واحدا تقريبا .
انظر : ذم الهوى – ص ٣٢٦ – ٣٢٩ .

لا يشبه كلام رسول الله ، وقد صح عنه أنه عد الشهداء ستا فلم يذكر منهم قتيل العشق ، كما لا يمكن أن يكون كل قتيل بالعشق شهيدا ، فإنه قد يعشق عشقا يستحق عليه العقوبة . ثم يذكر طائفة من الفقهاء الذين أدخلوا هذا الحديث فى الموضوعات[1] . وقد وصف العشق بأنه السرف فى الحب والمبالغة فى الميل ، ووصف بأنه تعبير عن الاشتهاء ، فى حين أن الحب ميل قلبى ليس الاشتهاء دافعه أو غايته ، أما الحب فقد ورد فى القرآن كثيرا ، والأمر اللافت حقا أنه لم يرد وصفا للعلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة ، بل لمجرد الميل والتعلق ، فوصف به الذين آمنوا ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ ووصف المؤمنون بأن الله تعالى ﴿يحبهم ويحبونه﴾ و ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ ووصف به الانحراف فى العبادة : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ كما وصف به الميل والتعلق بصفة عامة بين أفراد الأسرة ، بل بين الإنسان وما يستهويه من متاع الدنيا ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ وقد جاء الفعل « لا يحب » لنفى الميل فى نفس هذه الدائرة من الاستعمال العام . ولم ترد كلمة الحب تعبيرا عن علاقة الرجل بالمرأة إلاّ فى سياق قصة يوسف وامرأة العزيز حيث ﴿قد شغفها حبا﴾ وحينئذ فإن تقديم « الشغف » – وهو من شغاف القلب أى الباطن أو الصميم – قد خلع على هذا الاستعمال نوعا من التخصيص أعان عليه السياق . أما الهوى فإنه لم يرد فى القرآن مرادفا للحب ، أى الميل إلى ما هو صالح أو فاسد من العقائد أو الأشخاص أو الأشياء ، وإنما خصص بالميل إلى ما ليس بصواب : ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ و ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا﴾ و ﴿وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾ . وقد اتخذ الإمام الغزالى قوله تعالى ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ دليلا على اثبات الحب واثبات التفاوت فيه ، أما فى حديث الرسول فقد روى قوله عليه السلام لأبى رزين العقيلى ، فى جوابه على سؤاله : ما الإيمان ؟ : « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » ، وكان من دعائه عليه السلام : « اللهم ارزقنى حبك ، وحب من أحبك ، وحب ما يقربنى إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلىّ من الماء البارد » ، وجاء أعرابى إلى النبى فقال : « يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال : ما أعددت لها ؟ فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلاّ أنى أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب »[2] .

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ص ٢٧ ، ١٧٩ – ١٨٠ .

(٢) جاء حديث « المرء مع من أحب » – « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فى طبقات الشافعية الكبرى .انظر الجزء الرابع ص ١٣٤ ، ٢٨٩ .

ونكتفى بهذه الأمثلة – وفى القرآن والحديث غيرها كثير – ليس لتأكيد استعمال لفظ الحب ، بل لتحديد دلالته وما يحظى به من كرامة وشرف حين توصف به علاقة المؤمن بالله ورسوله . وهنا إشكال طريف لابد أن نشير إليه ، يتعلق بمحبة الله للعبد ، أو ما عبر عنه لسان الدين بن الخطيب بمحبة القديم للمحدث ، وأصل الإشكال ومنبعه تعريفهم للحب ، يقول الإمام الغزالى : « انه لا يتصور محبة إلاّ بعد معرفة وإدراك ، إذلا يحب الإنسان إلاّ ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحى المدرك » ثم يربط الغزالى بين الحب واللذة « فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشىء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا » ، ومن ثم ، ترتيبا على هاتين المقدمتين يقرر الغزالى أن محبة العبد لله حقيقة وليست بمجاز ، أما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ، بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا[1] . ويزيد صاحب « روضة التعريف بالحب الشريف » الأمر تفصيلا ومجاراة للتصور الصوفى ، حين يقول : « وأما محبة القديم للمحدث فلا تتأتى إلاّ بتأويل ومسامحة ، وربما تأتى التوفيق والتحقيق إلى ايهام الحلول أو الوحدة اللذين توهمها ألفاظ هذه الطوائف ، لأنه يوهم ألاّ يحب إلاّ نفسه ، إذ ظهر من أسباب المحبة الأولى أنها عائدة إلى ذات المحب وان اختلفت » . ويستقصى ابن الخطيب الاحتمالات المنطقية لعلاقة الحب بين المحب والمحبوب ، فيقول : « ومحبة المحدث للقديم محبة فرع لأصل ، وحنين جزء لكل ، ومحبة القديم للمحدث محبة مؤثر لأثر ، وصانع بصنعة ؛ فإنما أحب صنعته وأثره وذاته ... ومحبة القديم للقديم ثناؤه على نفسه فى علم عينه ، واطلاق هويته . أنت كما أثنيت على نفسك »[2] .

وإذا كان لفظ « المحبة » يثير كل هذا الجدل والقلق ، فإن لفظ « العشق » يكاد ينعقد الإجماع على تجنبه فيما يتعلق بذات الله سبحانه ، وتحت عنوان : جواز العشق على الله ومن الله ، يقول الديلمى : ان داود عليه السلام كان يسمى عشيق الله ، وفى الحديث القدسى : وإذا علمت أن الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت شهوة عبدى فى مسألتى ومناجاتى ، فإذا كان عبدى كذلك ، عشقنى عبدى وعشقته . ويعقب الديلمى على كل ذلك بقوله : ان شيوخنا لم يستعملوا لفظ العشق وصفا لعلاقة العبد بربه ، إلاّ على النادر ، ولا أرى للانكار وجها ، فالعشق والمحبة اسمان لمعنى واحد ، إلاّ أنا وجدنا اسم المحبة أشهر وأمضى ، فهو مجمع على جوازه[3] .

---

(١) راجع : احياء علوم الدين – جـ ٤ ص ٢٩٤ – ٣٢٧ .
(٢) روضة التعريف بالحب الشريف ص ٣٧٦ ، ٣٩٤ .
(٣) عطف الألف المألوف على اللام المعطوف ص ٦ .

ومن الطبيعى أن نلاحظ نقص القسمة العقلية ، فأين حب المحدث للمحدث ؟ أين الحب الإنسانى ، وعلى الأخص : الحب بين الرجل والمرأة ؟ انه النوع المسكوت عنه عند هذين العالمين الكبيرين ، وهو ما نهتم به أصلا كما ذكرنا آنفا . وفى القرآن الكريم نجد الدعوة إلى النقاء وحفظ الفروج وغض البصر ، وفى الأحاديث ما يماثل ذلك المعنى والغاية ، وقد تنصرف الدعوة إلى نهى النفس عن الهوى إلى معنى مقاومة الشهوة ، بل ينقل ابن القيم فى معنى قوله تعالى : ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ أى لا يصبر عن النساء ، كما ذكر الثورى عن ابن طاوس ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ قال : إذا نظر إلى النساء لم يصبر[1] ، فكأنما تمثلت آية ضعفه أوضح ما تكون فى شعور الحاجة إلى المرأة والعجز عن الاكتفاء الذاتى .

ونكتفى باللمحة الدالة لنرى أن الاهتمام بالحب ، وبالجنس كان يعلن عن نفسه عبر مفاهيم وشواهد قد تكون نصا فيه ، وقد تفهم ضمنا ، وقد لا تعنيه ، فينقل الكورانى أن البلقينى قال فى التدريب : النكاح مشروع من عهد آدم ولم تنقطع شراعيته ، ومستمر فى الجنة ، ولا نظير له فيما يتعبد به من العقود بعد عقد الإيمان . وعن ابن حبيب عن الحسن فى قوله : ﴿وجعل بينكم مودة﴾ قال : الجماع ، ﴿ورحمة﴾ قال : الولد ، أخرجه ابن المنذر[2] .

وقد عنى القرآن بالقصص كثيرًا ، فتعددت مواضيعها ومراحل تصوير أحداثها وتفصيل طبائع شخصياتها وابراز الطابع الحوارى فى سياق صياغتها ، وتبقى قصة يوسف وامرأة العزيز متميزة بتكوينها وتفاصيلها ورسم شخصياتها والاهتمام بمواقفها وحركة الحوار فيها وتعدد أزماتها ومآزقها وطريقة حل هذه المآزق ، وعظة الختام فيها ، وقد هدفت هذه القصة القرآنية إلى رسم شخصية الشاب الوسيم الذى يتعرض للإغواء من امرأة ذات منصب وجمال ، فيستعصم ، ويقول إنى أخاف الله ، فينسب إليه ما لم يكن منه ، ويعاقب مظلومًا ، فيصبر ، إلى أن تظهر عفته ، فينال جزاء الصادق الصابر ، وقد ظهر حفظه وعلمه أيضًا . وقد اقتحمت تفاصيل هذه القصة اللحظات الحرجة فى مواقف اغراء المرأة للرجل ، وعبرتها لمحا فى عبارات فيها من واقعية التعبير وصدق احساس المرأة وطبيعة سلوكها بقدر ما فيها من ترفع عن ابتذال اللفظ وضعة الاشارة ، وان هذه القصة يمكن أن تكون بذلك نموذجًا متوازنًا للكتابة الصريحة فى مجال الحب والجنس ، يجمع بين الغاية والوسيلة على مستوى واحد ، دون أن يكون أحدهما ذريعة للترخص فى الآخر . ولا تزال هذه القصة الدينية تحمل من عناصر التشويق والإثارة بحيث تفرض نفسها على أىّ مؤلف فى موضوع الحب ، بل فتحت الباب إلى مناقشة حب

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ص ٢٠٣ .

(٢) مخطوط بالمتحف البريطانى بعنوان أمل الذكر ورقة رقم ٤ ، ٦ .

الانبياء ومدى تعلقهم بالنساء ، وهو أمر سيشير إليه صاحب الزهرة ، ويجعل من أهداف كتابه أن يكون جوابًا عليه .

وقد تطرقت بعض الأحاديث النبوية إلى نقاط حساسة فى إطار قضية الحب ، وحيث يسيطر المنطلق الدينى أصلاً على هذه الأحاديث ، فإنها تجعل اتيان الرجل زوجه نوعًا من رعاية حق الله ، حين يقترن هذا العمل بنية الإعفاف ، إعفاف النفس واعفاف الزوجة أيضًا ، وهذا جانب مما يعنيه قوله عليه السلام : « وفى بضع أحدكم صدقة » ، ينقل ابن حجلة المغربى أن هذا ما اختاره ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم ، ففى وطء الرجل زوجه كمال اللذة وكمال الإحسان وحصول الأجر وفرح النفس وذهاب أفكارها الرديئة عنها وخفة الروح وذهاب كثافتها وغلظها وخفة الجسم واعتدال المزاج وجلب الصحة ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهًا حسنًا وخلقًا دمثًا وعشقًا وافرًا ورغبة تامة واحتسابًا للثواب فذلك اللذة التى لا يعادلها[1] ، وقد أطلنا الاقتباس من هذا التعليق على الحديث الشريف لنرى وجها من سعة أفق الفكر الإسلامى واهتمامه بالدوافع واقرار الحقوق الشرعية .

وكما يهتم الحديث النبوى بالإعفاف فإنه يهتم بالحب ، وحقه فى أن يكون الرابطة الأساسية لبيت الزوجية . وهذا ما تؤكّدُهُ قصة بريرة ، الأمة التى زوجها سيدها من عبد رقيق يدعى مغيثًا ،فلما اشترتها عائشة واعتقتها صار من حقها فسخ عقد الزواج أو اقراره ، وقد اختارت بريرة الفسخ ، ولكن الزوج السيئ الحظ كان يحبها ، قال ابن عباس : « كأنى انظر إليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال النبى ﷺ لعباس : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثًا ؟ فقال النبى ﷺ (لبريرة) : لو راجعته ! قالت : يا رسول الله أتأمرنى ؟ قال : إنما أنا أشفع ، قالت : فلا حاجة لى فيه » . فأى سماحة فى هذه الشفاعة ، وأى سماحة فى تقبل ردها ، وأى قرار خطير اتخذ بأناة حين اعترف بحق القلب فى الاختيار ، وقدمه على حق الشفاعة وان تكن شفاعة من لا ترد شفاعته ، وهو القائل : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وهناك أحاديث ذات علاقة وثيقة ودلالات عميقة على ما نحن بصدده ، فيروى ابن الجوزى هذه الأحاديث ، التى تعالج جوانب من نزوات الحب أو تحذر منها ، مثل ما روى أنه – عليه السلام – رأى امرأة فأعجبته ، فأتى زينب فقضى منها حاجته ، وقال : « إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، وتدبر فى صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله ، فإن ذلك يردّ مما فى نفسه »[2] ، وما اقتبسناه منذ قليل عن ابن القيّم يصلح تعقيبًا على هذا الحديث ،

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٢١٧ ، وعنه أخذ صاحب ديوان الصبابة بنصه . انظر : ص ١٨٣ .

(٢) ذم الهوى – ص ١٤٦ ويقرر أن هذا الحديث قد انفرد بإخراجه مسلم .

وإذ يحذر من عمل قوم لوط ويجعله أخوف ما يخاف على أمته ، ويعتبر السحاق زنا ، فإنه يتوقف أكثر من مرة عند محاولة اغواء الجارة والمتزوجة ، فقد جعل الزنا بحليلة الجار ثالث أعظم الذنوب بعد الشرك بالله وقتل الولد ، وجاء فى حديث آخر أنه « سئل رسول الله ﷺ عن الزنا ، فقال : حرام حرمة الله ورسوله ، فقال : لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » .وقال : « من خبّب امرأة على زوجها فليس منا » وقد شرح الامام على – كرم الله وجهه – هذا الحديث فى وصفه للزنا بالمتزوجة بأنه أعظم الزنا ، إذ يصير الرجل زانيًا ، وقد أفسد على الآخر زوجته[1] . إن الزنا بالجارة إفساد لعلاقة اجتماعية هى موضع الرعاية فى الأخلاق الإسلامية واستغلال غير كريم للثقة والألفة التى تنتهى إليها الجيرة عادة ، وفى إفساد المتزوجة هدم لأسرة ، بل لأسرتين ، ووضع البغضاء مكان المحبة . ومن هنا كان التحذير والتنفير المضاعفين ، فى هاتين الحالتين ، مع تحريم الزنا أصلاً .

ولما لم يكن هدفنا أن نعرض للتصور الإسلامى للمرأة ،ولحقوقها المختلفة (فهذا أمر يطول ويخرج بنا عن الهدف المرسوم) ولما كنا نتحرك فى إطار الكتابات التراثية العربية حول الحب ، دون توسع فى الفقه أو التفسير أو الحديث إلاّ أن يكون واضح التأثير فى هذه الكتابات ، فإننا نختتم هذه الفقرة عن الحب فى القرآن والسنة ، بما ذكره جعفر السراج رواية عن أشياخ من الأنصار قالوا : « أتى النبى ﷺ يوم أحد بعبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح قتيلين ، فقال : ادفنوهما فى قبر واحد ، فإنهما كانا متصافين فى الدنيا »[2] . فهل يفسر لنا هذا الحديث تلك العبارة التى ستصادفنا كثيرًا فى أخبار العشاق – غير الفساق – وقصصهم ، وتكون ختام المقال بشكل متكرر : « فدفناهما فى قبر واحد » ؟ !

فى كل الاتجاهات :

فإذا كان إلف النساء والرغبة فيهن أمرًا مشتركًا بين جنس الرجال ، وكذلك الحال بالنسبة للنساء ، فإنه من الطبيعى أن تكون العلاقة بين الجنسين ، بمختلف الألفاظ الدالة عليها ، والمراحل التى تمر بها ، والمستوى الذى تكون عليه – موضع تأمل يعبر عن حجم الانشغال بها والتفكير فيها ، واتخاذها أصلا يقاس عليه ، فى صورة مثل يضرب ، أو قول مشهور ينظم ، أو طرفة أو نكتة تروى . وعلم الاجتماع الحديث فى سعيه لاكتشاف طبائع السلالات وخصائص الشعوب لا يكتفى بالدراسات البيولوجية أو الحقائق الاحصائية عن الأنشطة العملية والعلاقات الاجتماعية ،

---

(١) ذم الهوى – ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ – وخبب : أفسد وخدع .

(٢) مصارع العشاق – جـ ٢ ص ١٠٦ وقد علمنا من قبل أن عروة وعفراء قد وضعا فى قبرين متجاورين ، ولكننا سنقابل فيما يأتى محبين يوضعان فى قبر واحد ، وفى أخبار النساء (ص ٦٧) يوصى جميل بوضع العاشقين فى قبر واحد .

بل كثيرًا ما يتطرق إلى الأمثال الشائعة بين العامة ، والأقوال المنتشرة بين المثقفين ، كما يستعين بالفنون الشعبية ومنها فن الحكاية أو النادرة ، كما أن « النكتة » ذات دلالة لا تجحد فى التعبير عن المزاج الاجتماعى ومعالمه الأخلاقية ، بما تعبر عنه من تسامح أو تشدد . ونادرًا ما نجد كتابًا من تلك الدراسات المتنوعة التى عنيت بالحب فى تراثنا لم يسجل الكثير من النوادر والحكايات والأمثال والأبيات الشاردة والعبارات التى تنقش على الخواتم وقطع الثياب الداخلية الخاصة بالنساء ، مما يعنى فى النهاية أن الحضارة العربية فى عصر قوتها وازدهارها قد أشبعت جميع الغرائز الإنسانية وبثت فيها الحياة ، واقتطفت منها ثمرًا شهيًا ، فيه من الذكاء والكياسة وصدق التجربة ورهافة الشعور ما يغنى عن كلام كثير .

ولما كان تأكيد الاتجاه العام هو رائدنا فى هذه الفقرة فإننا سنضرب صفحًا عن تقصى العصر التاريخى الذى قيل فيه المثل أو الشعر أو النادرة ، معتبرين – فى هذا المجال وحده – بالخلاصة دون حرص على تقصى المتغيرات ، التى لا نشك فى أنها كانت قليلة أو معدومة ، ويتأكد ما نقرره حين نعرض أمثال الماضى وشوارد أبياته على عقائدنا العامة فى عصرنا ، فلا نجد أنفسنا على تنافر مع شىء فيها إلاّ فيما ندر ، بل توشك « النادرة » أن تكون هى بذاتها « النكتة » الجنسية المكشوفة التى تشيع بيننا ، همسًا أو علانية مراعاة للوسط الاجتماعى ودرجة الثقافة ، مع اقرار للمبدأ الأول ، الذى عناه ابن قتيبة فى كلمته السابقة ، فعالم المرأة ما من رجل إلا وهو ضارب فيه بسهم : حلال أو حرام .

وقد اهتم الثعالبى بالأمثال وشوارد الأبيات فى كتابه « التمثيل والمحاضرة » بشكل واضح ، فمما وضعه تحت عنوان : « العشاق والعشق » :

* حبك الشىء يعمى ويصم
* الهوى هوان
* قطع الأوصال أيسر من قطع الوصال
* من كثرت لحظاته دامت حسراته[1]
* المحبوب مسبوب
* أطيب الطيب عناق الحبيب

وعلى صيغة « أفعل من كذا » يضع الثعالبى ثبتًا مطولاً وكأن هذه الصيغة قد استمدت محتواها الشعورى من حالات الحب ومعاناة العشاق ، وهذا قليل من كثير مما جاء به يشهد بما نقول :

---

(١) اتخذ محمد بن داود هذا القول عنوانا للفصل الأول من كتابه : الزهرة .

* أثقل من رقيب بين محبين
* أثقل من واش على عاشق
* ألم من دمع على عاشق
* أشقى من محب
* أطيب من ريح الحبيب الموافق
* أقبح من عاشق مفلس
* ألذ من ريق الأحبة فى الفم

وتحت عنوان « النساء » يضع الثعالبى طائفة من الأمثال مع تعقيبات موجزة ، تدل – فى النهاية – على موقف المجتمع من النساء ونظرته اليهن ، وحيث يبدو الترخص الواضح فى أشياء ، يبدو الحذر وشدة الغيرة فى أشياء أخرى :

* كل شىء مهة ومهاة ما خلا النساء وذكرهن ؛ أى أن الحر يحتمل كل شىء حتى يأتى ذكر حرمه . ومعنى المهة : اليسير .
* كل ذات صدار خالة ؛ أى من حق الرجل أن يغار على كل امرأة كما يغار على حرمه .
* النساء حبائل الشيطان[1]
* اعص هواك والنساء ، وأطع ما شئت .
* القبح حارس المرأة
* البياض نصف الحسن
* التحسن خير من الحسن

ومن الأبيات السارية مسرى الأمثال ، وسيقابلنا مثلها الكثير فى ثنايا هذه الدراسة ، قول الشاعر :

كل شىء من الحبيب مليح غير أن الصدود منه قبيح

وقول آخر :

صيرت حبك شافعى فأتيت من قبل الشفيع

(١) نسب الأنطاكى إلى الجنيد – على سبيل الظن – قوله تكملة لذلك : وحبائل العرفان .انظر : تزيين الأسواق ص ٥٧ .

وقال غيره :

يقولون : لو دبرت بالعقل حبّها ولا خير فى حب يدبره العقل

وقال ابن المعتز :

هى الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إن تقويم الضلوع انكسارها

وقول الآخر :

لا يأمنن على النساء أخ أخا ما فى الرجال على النساء أمين

وقال غيره :

لا تنكحن عجوزا إن دعوك لها وان حبوك على تزويجها الذهبا
وإن أتوك وقالوا إنها نصف فإن أفضل نصفيها الذى ذهبا[1]

ويسجل أبو جعفر السراج أبياتا مما ينقش على الخواتم ، وقد كانت الجوارى والقيان – وغيرهن أيضا – يفعلن ذلك ، فيذكر أن مغنية نقشت على خاتمها :

ما أنصفوا ، حجبوك أو حجبونى مهما أذوك ، فبالأذى طلبونى

ونقشت أخرى :

قلبان فى خاتم الهوى جمعا فأرغم الله أنف من قطعا

ونقشت ثالثة :

تمنيت القيامة ليس إلاّ لألقى من أحب على الصراط

وهذا الأخيرة تعلى من شأن نفسها عن طريق ما تزعم من صدق العاطفة إذ تنقش على خاتمها :

أنا إن مت فالهوى داء قلبى فبداء الهوى يموت الكرام[2]

وقد تجاوز الوشاء فى كتابه « الموشى أو الظرف والظرفاء » إطار ما يكتب العشاق إلى ما يكتب فتيان العصر وفتياته بوجه عام على فصوص خواتمهم ، وأضاف إلى ذلك ما وجد على ذيول الأقمصة وطرز الأردية والأكمام والعصائب ومشاد الطرر والذوائب والزنانير والتكك

(١) انظر كل هذه الأمثلة فى : التمثيل والمحاضرة –ص ٢٠٩ – ٢١٩ وفى مجمع الأمثال للميدانى أضعاف ذلك ، ولكنها مادة متفرقة .

(٢) مصارع العشاق جـ ٢ ص ٧٢ .

والمناديل والستور والوسائد والبسط والمرافق والمقاعد والنعال والخفاف والأقدام وأقداح الراح والقناني والكاسات إلخ ، وهي في مجموعها تصور ذوق عصر ازدهار الحضارة العربية ، وترفها ، وأخذها بأوفى نصيب من متع الحياة[1] .

وتعكس النوادر والفكاهات سرعة البديهة العربية وما تتمتع به من ذكاء فطرى ، ولباقة تعبير ، كما سنجد فيها قدرا من الجرأة على الألفاظ الصريحة ، وقدرا من الميل إلى المداعبة وخفة الروح ، ومن خلال هذا كله لن يخطىء الخاطر أن يرى منطق الحياة الغلابة ، ولعلنا بذلك نصحح جانبا من فكرتنا عن الماضى التاريخى لأمتنا العربية حيث يبدو للبعض منا تاريخا متجهما ، وكأن المجتمع القديم لم يكن أكثر من ثكنة عسكرية يعيش فيها شعب مجاهد لا يضع السلاح ، أو يعيش فى المسجد لا يهجر المحراب !! قد يكون هذا صحيحا فى بعض قطاعات المجتمع أو فى مراحل قصيرة جدا من التاريخ حيث تشتد الأزمات وتستدعى الأمة لإثبات جدارتها بالبقاء ، أما والحياة رخاء والجو أمان والرزق وفير فإن أعظم ما يثبته الإنسان أنه مجرد إنسان ، يحب الحياة ، ويحاول أن يستمتع بكل ما يتاح علانية فإن لم يكن فخفية ، لا يقصد إلى التمرد على القيم قصدا بقدر ما يتحايل لتحلية حياته الخاصة غير ملتفت للمعنى المجرد لذلك . وفى مثل هذه النوادر يتجلى الطابع الشعبى فكرا وتعبيرا ، وتسفر قيم البيئة الاجتماعية عن نفسها بغير تصنع ، وهل يختلف هذان البيتان عما يمكن أن يقوله شاعر ساخر خفيف الروح فى عصرنا يتوعد امرأته ، وتشى كلماته بالخوف منها :

إذا ما جئت ما أنهاك عنه ولم أنكر عليك فطلقينى
فأنت البعـــل يومئذ فقومى بسوطك لا أبالك فاضربينى

أما البيتان فمنسوبان إلى الشنفرى[2] ، الشاعر الجاهلى الصعلوك الفاتك !! أما النوادر الفكاهية التى يقصد بها إلى الاضحاك فإنها كثيرة منتشرة ، لا يكاد يخلو كتاب من تلك الكتب التى اهتمت بالحب من إيراد بعضها ، وهذا أبو حيان التوحيدى – على وقاره الفكرى – يروى قولا عن أعشى همدان قاله لامرأته : فأجابته بأشد منه ، مما نعف عن ذكره .

ومن فكاهات أبى حيان التوحيدى أيضا :

* طلق أبو الخندف امرأته أم الخندف ، فقالت له : يا أبا الخندف طلقتنى بعد خمسين سنة .فقال : مالك عندى ذنب غيره[3] .

---

(١) انظر : الموشى ص ٢٤٤ – ٢٩٤ .
(٢) أخبار النساء ص ١١٢ .
(٣) الامتاع والمؤانسة جـ ٣ ص ١٧٤ – ١٨٣ .

ومن فكاهات الجاحظ ونوادره الكثيرة ما وضعه تحت عنوان « محاسن القيادة » فى الكتاب المنسوب إليه : « المحاسن والأضداد »[1] . وهى نوادر صريحة المغزى واضحة الإشارة ، ومثل ذلك فى صراحته ما يرويه الأبشيهى فى مستطرفه ، فقد سجل بعض الفكاهات المتداولة فى عصره ، والعصور السالفة أيضا[2] .

وتحت عنوان « ذكر شىء من نوادر النساء والجوارى » وضع النويرى طائفة من الفكاهات الصريحة الجريئة :

* أراد شيخ أن يشترى جارية ، فقال لها : لا يريبك شيبى ، فإن عندى قوة . فقالت : أيسرك أن عندك عجوزا مغتلمة !!

* قيل لامرأة ظريفة : أبكر أنت ؟ قالت : أعوذ بالله من الكساد .

* وكتب رجل إلى عشيقته رقعة ، قال فى أولها : عصمنا الله وإياك بالتقوى . فكتبت إليه فى الجواب : يا غليظ الطبع ، ان استجاب الله دعاءك لم نلتق أبدا .

* يحكى أن بعض القضاة كانت له جارية ، وكان يعزل عنها ، فدخل عليها يوما ، فرأته كئيبا محزونا ، فسألته عن أمره ، فقال : عزلت عن القضاء . فضحكت ثم قالت : يا سيدى ، ذق مرارة العزل ، طال ما قد أذقتنيه[3]

ونختم هذا الطواف السريع بين الهامش والصميم ، فى محاولتنا الاقتراب من الحب ، كظاهرة إنسانية ، وعاطفة طرفاها الرجل والمرأة ، نختمه بالإشارة إلى تأثر هذه العاطفة بفن الغناء ، وهو تأثر لا سبيل إلى الشك فيه ، ويفسره لنا هذا الاهتمام الفقهى الشديد بموضوع « السماع » وانعقاد ما يكاد يكون اجماعا على تحريمه حين يكون لهوا مباحا ، وتحريمه قطعا حين يقترن أو يكون داعية لمحرم ، ومن هنا كانت عبارة ابن الجوزى : « الغناء داعية الزنا » ودعوته أن نجنبه النساء ، وقد تعرض المغنون فى العصر الأموى بخاصة لأكثر من أزمة ماحقة ، وكانوا يعاملون بازدراء ، ولكنهم بصفة عامة تجاوزوا محنتهم ، وعاش بعضهم حياة ناعمة ، وتمتع بالشهرة والثراء وحماية أصحاب النفوذ من الأشراف . ويعنينا هنا أن المغنين صاروا جزءا من ملامح الحياة المترفة التى عاشها الحجاز فى مدينتيه الكبيرتين : مكة والمدينة فى العصر الأموى ، وإنه لتأكيد منزلة المغنى فإنه أخذ مكانه فى سهرات أصحاب القصور كما أخذ مكانه فى رحلات الشباب اللاهية ، خارج الأحياء السكنية ، وهى رحلات فيها النزق والعبث والصخب ، وكان

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٧٥ .

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ١ ص ٥٤ .

(٣) رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب – مخطوط بدار الكتب بالقاهرة – الورقة ١٣ ب .

المغنى يكمل مجلس النبيذ بعد ذلك كله[1] . على أن انتشار مجالس الغناء وولع الناس به ، قد فعل فعله فى نفوس الشعراء ، من إيثار للموضوعات التى يقبل الناس على سماعها ، وتفضيل للأوزان الخفيفة ، وانتقاء للألفاظ الرقيقة . وندلل على أثر الغناء فى انتشار شعر الحب بما ذكره الأصفهانى من أن قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى مطلعها :

تشط غدا دار جيراننا وللدار بعد غـد أبعد

قد لحنت تسع عشرة مرة ، وغناها مشاهير الغناء فى مكة مثل ابن مسجح وسريج والغريض ، وفى المدينة مثل معبد ، واستمر الاهتمام بالقصيدة إلى العصر العباسى فغناها اسحاق الموصلى وابن جامع وعُلَيَّة بنت المهدى فى بغداد[2]

وستطول وقفتنا بعض الشىء مع عمر بن أبى ربيعة الذى نال حظا وافرا من اهتمام المغنين ، أو لعلهم نالوا حظا وافرا من اهتمامه ، ولنقرأ هذا الخبر :

« واعد عمر بن أبى ربيعة نسوة من قريش إلى العقيق ليتحدثن معه ، فخرج إليهن ومعه الغريض ، فتحدثوا مليا ومطروا ، فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فأظلوا عليهن بمطرفه وبردين له حتى استترن من المطر إلى أن سكن ، ثم انصرفن ، فقال له الغريض : قل فى هذا شعرا حتى أغنى فيه ؛ فقال عمر :

ألم تسـأل المنزل المقفرا بيانا فيكتم أو يخبرا »[3]

فهذا الترافق بين الشاعر والمغنى ليس بدعة ، وقد كان الشاعر القديم يغنى شعره ، وانطلاقهما للقاء النسوة خارج مكة كان بمثابة البحث عن مثير فنى بالنسبة للشاعر ، وحافز لتحلية المجلس بالنسبة للمغنى ، فلابد أنه اصطحبه ليقوم بالغناء ، وغناء شعره هو دون غيره ، وشعره العاطفى فى المرأة بالذات ، فلما استهلت مناسبة جديدة التقط المغنى طرف الخيط ووجد فيه مشهدا لا يتكرر كثيرا : شريفات قريش تحت مطرف عمر ، وهو واقف يحميهن من البلل !! لكن هل يطيق العصر حرية التعبير الصريح عن التجربة ؟لا ، ولا التعبير الرمزى إلا بكثير من الالتواء وغموض التكنية . لقد ذكرت بعض الأخبار أن بعض شهيرات العصر تعرضن لعمر لكى يشبب بهن ، أو يشبب بجواريهن على أن يضمن كلامه ما يومىء إلى أنه لا يعنى الجارية ، ولكن الترف الذى اكتسح الكثير من خصال حياة البداوة وتقاليد القبيلة لم يستطع بسهولة أن يتسلل إلى « مظاهر » وضع المرأة فى مجتمع يقوده الرجال ويقررون فيه الصواب والخطأ . والأبيات

(١) الغزل عند العرب جـ ١ ص ١٥١ .
(٢) الأغانى جـ ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) الأغانى ص ١٥٠ ، ١٥١ .

التى أوردها صاحب الأغانى تعقيبا على الخبر السابق مجرد صورة وصفية لاقبال ثلاث من الحسان لملاقاته ، ثم غفلتهن عن مضى الليل لحلاوة الحديث ، وحرصهن على اخفاء أثر أقدامهن حتى رحن يزلنها بأكسيتهن الحريرية ، ليس فيها استبطان للعالم الداخلى ولا معاناة حقيقية لتجربة حب متخم أو محروم . ونصل إلى دلالة أخرى فى خبر آخر طويل ، لا حاجة بنا إليه ، وخلاصته أن عمر – أيضا – كان جالسا بمنى فى فناء مضربه ، إذ اقبلت امرأة عليها أثر النعمة ، فسلمت ، ثم قالت : هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها ، وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ ! ، ووافق عمر على شرطها فى أن تقوده معصوب العينين ، فإذا ما كشف عن وجهه وجد نفسه أمام أجمل النساء وجها ، وقد تكرر اللقاء على هذه الشاكلة الغريبة ثلاث ليال متتابعات ، وفى كل ليلة تبدأ فتجهه : أنت الفاضح للحرائر . ثم تلقى عليه من شعره الغزلى البديع ما تراه قد فتنها حتى استدعته وهى تظهر ملامته وتأنيبه ، وكانت الأبيات التى تمثلت بها فى الليلة الثانية قول عمر :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى ... على الرمل من جبانة لم توسد
فقالت على اسم الله أمرك طاعة ... وان كنت قد كلفت ما لم أعود
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى ... فقم غير مطرود وان شئت فازدد

ثم نصل إلى العبارة التى نبحث عنها : « الغناء لأهل مكة »[1] . هكذا يجمل الأصفهانى روح المرحلة فى جملة قصيرة ، لقد قام أهل مكة بتلحين أبيات عمر ، وبلغ من شعبية هذه الأبيات وانتشارها أن لحنها لم ينسب لواحد من مشاهير العصر ، وهى أبيات فى الغزل الصريح ، فماذا كان باستطاعة مثل هذه الأبيات التى تؤثر فى الأخلاق العامة ، أن تصنع من تصورات وخيالات الناشئة من فتيان وفتيات مكة ؟ ومن ناحية أخرى : هل يطمح شاعر إلى أكثر من أن تقوم مدينة كبيرة بتلحين شعره وترديده ؟ وبالنسبة لما نعنى به من موضوع : هل كان باستطاعته أن يصل إلى هذه المنزلة لو كانت هذه الأبيات عن شىء آخر غير الحب ؟

فى العصر التالى – العباسى – سيكون للغناء واللهو دور خاصة واسعة الانتشار ، لن تكون مقصورة على الغناء ، ولهذا سيلعب فيها الحب دورا مختلفا تماما ، يحتاج إلى لون من التناول يحسنه الجاحظ الساخر ، فلنترك لقلمه هذا الأمر ، يؤديه بلغته اللاذعة ، بعد حين .

---

(١) بالأغانى جـ ١ ص ١٩٢ ، والجبانة : الصحراء .